



الرسالة الحادية عشرة إلى جميع الأحباب.. مع قدوتهم صلى الله عليه وسلم



الأربعاء 10 مارس 2010 ص

كتب: بقلم: الشيخ / محمد عبد الله الخطيب

حول جوانب العطمة والقدوة من حياته

ما أوسط القول وأعظم الحديث عن جوانب العطمة في حياته صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها **«لَعْذٌ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَشَوَّهُ حَسَنَةٍ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْأَجْزَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»** (الأحزاب). (21)

أيها الأحباب.. هذا رسولكم، وهذا قدواتكم، وهذا نبيكم، وهذا فاقربروا منه، والتصدقوا ببابه، واستحضرروا عظمته، وأطليعوه في كل قول وعمل، بل في كل حركة وسكنة، فهو الطريق إلى مرضاة الله ورضوانه، وجناته **«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»** (النساء: من الآية 80)، **«فُلِّ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يَخِينُكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُوزٌ رَّحِيمٌ»** (آل عمران: 31).

جاء صلى الله عليه وسلم إلى هذه الدنيا، وقد أظلم هذا الكون بسبب الجاهليات، والصلالات، وانحراف البشرية عن طريق الله عزوجل، فاستطاع بفضل الله أن يردها إلى الطريق، وأن يبصرها بالحق، وأن يهدى بها بإذن ربها إلى الصراط المستقيم، يقول الشاعر:

رباه أرسل لنا فلكاً وزنانأ	الليل طال ألا فجر يبدده
يهدي إلى الله أجمعاماً وعرباناً	هناك لاح سنا المختار مؤنلاً
تقل من أمها شيئاً وشياناً	يقود دعوته في اليم باخرة
لم تبع إلا هدى منه ورضواناً	السلم رايتها والله غايتها

يجب على المربيين أن يتمعمقوا في فهم شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يترجموا هذا الفهم إلى حقائق، يعلمونها للشباب دائمًا بل يربونه عليها، فمن سماته الأصلية صلى الله عليه وسلم:

1- يجب أن نعلم- على وجه اليقين- أن النبوة هي القدوة الثانية في حياة البشرية التي أرادها الله وصنعاها لتكون كذلك.

فقد قال سبحانه وتعالى في سيدنا موسى: **«وَاضْطَبَنْتُكَ لِتَغْسِي (41) (طه)، وقال له: (ولِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) (طه: من الآية 39)، ثم قال لشقيقه الأكبر **«وَاضْبِرْ لِحَكْمٍ رَّبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِي»** (الطور: من الآية 48).**

معنى هذا أن عناية الله ورعايته تحيط بأنبائه ورسله من يوم أن جاءوا إلى الدنيا حتى التحاكم بالرفيق الأعلى.

2- ومن دلائل حفظه صلى الله عليه وسلم ورعايته أنه ولد من نكاح طاهر، فقد حفظه الله من كل سفاح على الرغم من أن السفاح، والانحراف صفات أصلية في المجتمعات الجاهلية، وهذا الأمر جُذُّ خطير إذا تعلق بأقوام هم في مرتبة القيادة بالنسبة لأقوامهم فما بمنزلة النبوة؟، يقول صلوات الله وسلامه عليه: **«ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح».**

3- ولد صلى الله عليه وسلم في قمة بين الحسب والنسب في الجزيرة العربية، وذلك أمر له خطره في طبيعة القيادات بين الأمم في الدنيا.

وقد كان لذلك الأمر خطره فعلاً- بقدر الله وتدبره- فقد كانت له مهابته في الدنيا، ومنزلته قبل النبوة، وقدر له لمكانته من قريش، ومن عمه أبي طالب أن يكون له من عمه، ومن سيف بن هاشم حماية له ولدعوه قدرها الله تبارك وتعالى في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة في مكة، تدفع جرأة هؤلاء الذين حرجوا في معاداتهم لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم عن كل قانون وكل أمر معقول.

4- لقد أراد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمل الدعوة الخاتمة إلى العالمين؛ وهي أنقل دعوة من ناحية التكاليف **«إِنَّا سَنُنَافِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقْبِلاً (5) (المزمل)، (فَاسْتَفِمْ كَمَا أَمْرَتْ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغُوا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ تَصْبِيز (112) (هود).»**

بذلك أمر الله وتدبره وصنعه، فقد شرح الله صدره بلا أدنى حرج لهذا الحق، فقال له بصراحة: **«كِتَابٌ أَنْزَلْ إِنَّكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرْجٌ مِّنْ لَتُنَذَّرِ بِهِ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْ إِنَّكُمْ مِنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَبَعُوا مِنْ ذُوِنِهِ أُولَئِكَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) (الأعراف).»**

ونقف وقفة متأنية عند كلمة (الحرج) التي وردت في صدر سورة الأعراف (إن قول الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم **«فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرْجٌ»** أي من تبليغ الرسالة لجميع الخلق، ولا يمكن أن يدرك هذه الحالة اليوم إلا الذي يعيش في أوضاع مثل أوضاعنا، ويؤمن بأنه إنما يستهدف أمراً ثقلياً، ويحمل أمانة غالبة، ويعني إقامة عقيدة خالصة لله عز وجل، وتصور صحيح للإسلام ولمبادئه السامية، وإنقاد الحائرين الذين بدوا عن هذا الطريق، وألفوا عادات وتقالييد ما أنزل الله بها من سلطان، وراحوا يخططون خطط عشوائية، بلا حادٍ ولا دليل، يستهدف رد آمة غاب عنها دعاتها، ونام عنها روادها، وسكنت إلى الدنيا إلا من عصم الله، واستسلمت للهوى فصارت حائرة، خاصة بعد أن أطبق عليها اليهود والصهاينة، وأعداء الإسلام من كل جانب، يريدون طمس تاريخها، وتغيير مسارها.

إن الذي يحاول أن يقف في وجه هذه التيارات جميعاً، ويريد أن يبصر الأمة بالصراط المستقيم؛ يشعر حقيقة بالحرج والضيق إلا من عصم الله.

لهذه الأسباب وغيرها، قد يشعر الدعاة بالحرج من تبليغ هذا الحق كاملاً إلى عباد الله، ولذلك يجد البعض في نفوسهم الحرج من تبليغ الناس هذا الحق، ومن صبرهم على أذاهم أحياناً؛ لذلك أمر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو القدوة والأسوة- أمره ألا يكون في صدره من تبليغ هذا الكتاب شيء من هذا الحرج، وأن يمضي به، يعلم ويعطي وينذر ويدرك، ولا يخشى ما تواجهه كلمة الحق من استنكار واستغراب، ومن مقاومة كذلك وعناء.

5- في الحياة المنحدرة إلى الهاوية قبل الإسلام، والتي حوت كل وسائل السقوط، حفظ الله رسوله حتى من مجرد المشاركة الشكلية لهذه الحياة في سلوكيها وقيمها.

ففي هذه الفترة، وجّه الله قلب رسوله صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء، يتبعده فيه الليالي ذات العدد، ثم يرجع إلى مكة

فيتزود لمنتها، ثم يعود مرة أخرى إلى غار حراء، يتأمل هذه الحياة من حوله، ويرقب العالم من هذا الغار، وهو في هذا يتأمل في خلق الله، ويتفكر في كون الله، وسخنان من وضع في كل قلب ما يشغل، فقلبه صلى الله عليه وسلم كالصفحة البيضاء الناصعة.

6- الزواج والنكاح وبناء البيت له أثره في حياة الإنسان، وفي وسط هذه المجتمعات الصائعة قدر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم نكاحاً طاهراً من امرأة طاهرة عفيفة؛ هي السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها.

فكان نعم الزوجة والمعين، فوقفت مع النبي صلى الله عليه وسلم تؤيده وتسانده، خاصة عندما جاءه الوحي، ورجع صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فؤاده ويقول: "زملوني، زملوني"، حتى ذهب عنه الروع، وقسن على خديجة ما كان من أمر اللقاء بينه وبين جبريل عليه السلام، فقالت في تصميم وبقين: كلا، لن يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكتب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نواب الحق.

وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان يقرأ في التوراة، فقالت له: اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: إنه الناموس الذي نزل على موسى، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤززاً، وقال ورقة أيضاً: ليتنى أكون فيها جذعاً إذ يخرجك قومك.

فقال: "أو مخرجك هم؟!" قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.

وفي رواية أخرى، جاءت في كتب السيرة؛ قال ورقة: لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن.
وتنلاحظ أن هذه الكلمات الأربع هي فعلاً الموقف الحقيقى تجاه الدعاة على مدار التاريخ؛ التكذيب فإن لم يقى فالإيذاء، فإن لم يؤثر في الداعية فالإخراج والطرد، ثم بعد ذلك محاولة العداوة، ومقاتلته.

وهذا ما حدث تماماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدث دائماً للدعاة الأبرار إلى يوم القيمة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* من علماء الأزهر الشريف.

